

دور الحفريات الأثرية في تعزيز الهوية الوطنية

د. / محمد الطيب عقاب

أ. د. / عبد الكريم عزوق

معهد الآثار – جامعة الجزائر 2

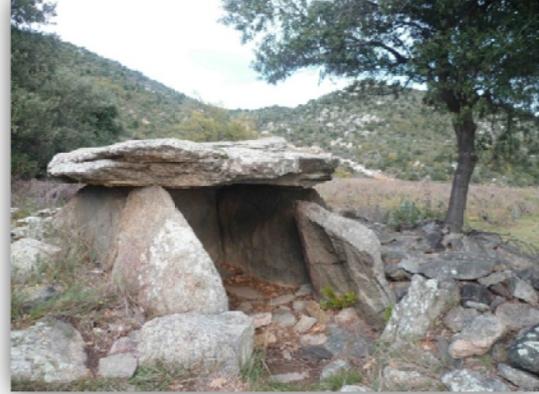
يكتسي موضوع هذه المداخلة أهمية بالغة بالنسبة لوطننا العزيز لما له من ارتباط وطيد بالشخصية الجزائرية، إننا ببساطة نتحدث عن دور الحفريات الأثرية في تعزيز الهوية الوطنية من خلال المخلفات المادية المكتشفة.

هذه التي تعد من الشواهد المادية بمختلف أنواعها منها الثابتة و المنقولة، منها المطمورة و البارزة، و منها تلك المحفوظة بواجهة المتاحف أو بمخازنها، هي أيضا تلك المخلفات الشاهدة على حركة الإنسان في الجزائر من عصور ما قبل التاريخ إلى اليوم. إن هذه الآثار التي تمدنا بها الحفريات الأثرية، إن بقيت جامدة فلا جدوى منها، أما إن تم استنطاقها بالأساليب العلمية المعهودة فستأدي دورها العلمي من جهة، من حيث أنها تفيدينا بمعلومات علمية دقيقة، كما أنها سوف تفيدينا في كتابة التاريخ و تصحيحه من جهة أخرى.

كما نستطيع أن نتعرف على المجتمع الجزائري عبر مختلف المراحل التاريخية التي مر بها و بهذا يمكننا أن نربط ماضي المجتمع الجزائري و التعرف على مميزاته و خصوصياته و ايصالها للأجيال اللاحقة في أحسن صورة . و إن كانت الأمم تقاس بحجم ما خلفته من الآثار، فإن آثار الجزائر تشهد على عراقة هذه الحضارة في التاريخ بدءا بعين الحنش بسطيف إلى موقع تغنيفين إلى التاسيلي و الأهقار التي تشهد تصاويرها الجدارية و نقوشها الصخرية و مغاراتها على طبيعة معيشة إنسان ما قبل التاريخ، و يعتبر التاسيلي و الأهقار من المتاحف المفتوحة على الهواء الطلق كما أن التاسيلي موقع مصنف ضمن التراث العالمي.



و إذا حاولنا الحديث عن فترة فجر التاريخ، نجد أن الشواهد المادية للحضارة الجزائرية واضحة في تلك الأبنية الجنائزية لكل من ضريح المدغاسن، و ضريح الخروب، و الضريح الملكي الموريطاني ومعالم الدولمان بموقع الركنية بقالمة و معالم الجدار بتيارت و غيرها كثير.
أما عن الفترة القديمة، فتشهد عليها مدن أثرية مازالت قائمة كتيبازة، و شرشال و تيمقاد و تبسة ولمبيز و غيرها كثير و أن البعض منها مصنف ضمن التراث العالمي.



أما عن الفترة الإسلامية، فتفاعل السكان المحليون معها و بنوا حضارة معالمها مازالت باقية في كل من مسجد سيدي غانم بميلة، إلى تاهرت الرستمية إلى أغادير الإدريسية بتلمسان، و قلعة بني حماد عاصمة الحماديين الأولى المصنفة كتراث عالمي، حيث أثرت بفنها و عمائرها في المشرق الإسلامي والأندلس و منطقة المغرب الإسلامي كلها إلى بجاية التي كانت قبلة للعلم و العلماء، و منها إلى تلمسان مدينة الفن و التاريخ و التي تشهد بحق على ما قدمه الإنسان المحلي في مجال الإنتاج الحضاري في تلك الفترة.



أما عن الفترة العثمانية، فإن فرنسا لما دخلت الجزائر وجدت دولة لها معالمها الحضارية و تابعة للباب العالي. و حتى الفرنسيون تأثروا بالحضارة الجزائرية، حيث عملوا على إيفاد نوع جديد من الفن يمتزج بين تقنية بناء العصر و المظاهر الفنية الإسلامية و سمي هذا الفن بالفن الموريسكي الجديد، و من أمثلة ذلك، البريد المركزي بالجزائر و معلم لديباش و الأروقة الجزائرية و غيرها...



و لا يمكن الحديث عن الهوية الوطنية دون الحديث عن فترة المقاومة الوطنية التي بدأها الأمير عبد القادر، و احتضنها الشيخ بوعمامة و المقراني و الشيخ الحداد و غيرهم. وإن كان الأمير عبد القادر قد قاوم من أجل المحافظة على هوية الأمة الجزائرية، فإن مجاهدي ثورة 1954 العظيمة قد ناضلوا من أجل نفس الغاية، و لذلك لا يمكن أن نترك آثار الثورة دون عناية و دراسة علمية تضيف للدراسات التاريخية الدعم المادي كشاهد على عظمة ثوارنا المجاهدين.



إن الجزائر قد استقبلت كل الحضارات التي مرت بها و تفاعلت معها بطريقة ايجابية اددت إلى ترك تلك المخلفات التي تشهد على مختلف الحقب التاريخية التي مرت بها و هذا ما أعطاهما تنوعا و ثراء من حيث المادة الأثرية و أعطاهما أيضا عراقا و قدما في التاريخ الحضاري للإنسانية. و لذلك يبدو واضحا أهمية المحافظة على هذا الإرث الحضاري للأمة الجزائرية و الذي صنع هوية المجتمع الجزائري عبر التاريخ باعتباره رافدا من روافد الهوية الوطنية و تقديمه للأجيال المستقبلية في احسن صورة.

لابد أن يعرف الجميع أن آثار الجزائر ليست مجرد شواهد حجرية صامتة، و لكنها رموز لهوية متأصلة تغرس جذورها في أعماق التاريخ و تمتد عبر أحقاب الزمن، و حتى الاستعمار الذي ظل يشكك في هوية الجزائر و في تاريخها الحافل بالأمجاد و الذي كان يعتقد بأنها أرض فرنسية ممتدة عبر البحار، و لكن الآثار مازالت قائمة في العديد من مدن الجزائر الأثرية تؤكد أن هناك شعبا عرف كل طبقات الحضارة البشرية التي تراكمت على أرضه بدء من عصور ما قبل التاريخ إلى يومنا هذا، و كلها تعبر عن تاريخ ممتد و هوية صلبة ظلت تقاوم محاولات المستعمر طمسها و كانت الآثار و لاتزال عنوان هذه الهوية التي تعتبر أقدم عهدا من العديد من الدول الأوروبية.

إن الحديث عن الهوية الوطنية، بالنسبة لعلم الآثار، فإن كل الشواهد المادية التي توجد تحت الأرض أو فوقها من ما قبل التاريخ إلى يومنا هذا، تعد من عناصر الهوية الوطنية، و يجب أن نعي جميعا أن الجزائر قد ساهمت من خلال هذه الآثار كلها في الحضارة الإنسانية جمعاء باعتباره تراثا عالميا فإننا لا نبالغ عندما نقول أن الجزائر لها مكانة رائدة ضمن الحضارات العريقة للإنسانية و إن تمكننا من إدراك كل ما ورد في هذه المحاضرة المتواضعة نستطيع أن نربط البحث العلمي في مجال الآثار من خلال الحفريات الأثرية بما يمكن المجتمع بالاعتزاز بماضيه المادي و بمقوماته الأخلاقية و اللغوية و الدينية إذ كانت هذه من بين المبادئ التي ناضل و استشهد من أجلها مليون و نصف المليون من الشهداء.